

سلسلة مواقف مضيئة في تاريخ الإسلام

الحلقة الحادية عشرة

بدر: حين تتغير موازين القوة

بدر ليست مجرد معركة في سجل التاريخ، ولا قصة بطولية تُروى لإثارة الحماسة في المجالس. بدر لحظة فاصلة أعادت تعريف القوة نفسها. ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، بإمكانات محدودة، في مواجهة جيش يفوقهم عدداً وعتاداً. وفق الحسابات المادية المجردة، كانت النتيجة محسومة سلفاً. لكن ما حدث قلب المعايير، وأثبت أن موازين القوة ليست رقماً يُحصى، بل نظام يُبنى.

النبي ﷺ لم يخرج إلى بدر باحثاً عن مواجهة عسكرية شاملة، بل خرج لاعتراض قافلة، في سياق صراع اقتصادي وسياسي مع قريش. حين تحولت الأمور إلى مواجهة مفتوحة، لم يتراجع، ولم يُلْقِ بالناس في معركة بلا ترتيب، بل تشاور، واستمع إلى المهاجرين والأنصار، خاصة أن بيعة الأنصار كانت في الأصل لحماية المدينة. كان يمكن أن يتدرع البعض بعدم الالتزام خارج حدودها، لكن الرد جاء حاسماً: "امض لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك". هنا يظهر أن القوة تبدأ من وحدة الموقف والوضوح في الالتزام.

ثم جاء الإعداد الميداني؛ اختيار موقع المعركة، السيطرة على مصادر الماء، تنظيم الصفوف، تثبيت القيادة. لم تكن بدر انتظاراً لمعجزة، بل بدلاً للوسع في ابتغاء وعد الله بالنصر. ومع ذلك، ظل الميزان المادي يميل لقريش. هنا يتجلى البعد الأعمق: العقيدة التي تصوغ الإرادة. ﴿كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. ليست الآية دعوة للاستخفاف بالعدة، بل تأكيد أن العامل الحاسم ليس العدد وحده، بل ما وراءه من ثبات ويقين ومنهج.

الهزيمة غالباً لا تبدأ في ساحة القتال، بل تبدأ في تعريفنا للقوة. حين نختزل القوة في السلاح فقط، أو في الأرقام الاقتصادية فقط، أو في التحالفات الدولية فقط، نكون قد أسقطنا أهم عنصر: الفكرة الجامعة التي تمنح المجتمع صلابة داخلية. بدر كانت اختباراً لمجتمع حديث الولادة، فخرج منها أكثر تماسكاً، لأن الانتصار لم يكن عسكرياً فحسب، بل كان تثبيتاً لشرعية الدولة الناشئة في أعين الداخل والخارج.

اليوم، حين ننظر إلى واقع الأمة، نجد أن ميزان القوة يُقاس غالباً بمعايير يضعها الآخرون. يُقال لنا إن الدولة القوية هي التي ترتبط بأقوى اقتصاد عالمي، أو التي تملك أحدث منظومات السلاح، أو التي تحظى برضا القوى الكبرى. لكن التجربة التاريخية تُظهر أن التبعية في تعريف القوة تُنتج هشاشة، لا صلابة. لأن من يمنحك أدوات القوة بشروطه، يستطيع أن يسحبها أو يقيدتها متى شاء.

بدر تعلمنا أن القوة تبدأ من استقلال القرار. فالمسلمون يومها لم يكونوا تابعين لقوة إقليمية، ولم ينتظروا ضوءاً أخضر من إمبراطورية مجاورة. كانوا يملكون قرارهم، رغم محدودية إمكاناتهم. هذا الاستقلال هو الذي جعل انتصارهم

ذا معنى. أما إذا كان القرار مرهوناً بقروض أو اتفاقيات أمنية أو ضغوط سياسية، فإن أي قوة ظاهرية تبقى قابلة للتآكل عند أول اختبار حقيقي.

كذلك تكشف بدر أن القيادة عنصر حاسم في صناعة النصر. القيادة التي تستشير، وتخطط، وتثبت في لحظة الخطر، وترتبط الناس بهدف أعلى من مجرد المكسب الدنيوي. في المقابل، حين تغيب الرؤية الواضحة، أو تتحول القيادة إلى إدارة أزمات يومية بلا مشروع جامع، تتآكل الروح، حتى لو توفرت الإمكانيات.

من زاوية أخرى، كان لبدر أثر نفسي عميق؛ رفعت معنويات المسلمين، وكسرت هيبة قريش، وأعادت رسم خريطة التحالفات في الجزيرة. الانتصار غير ميزان الردع. هذا البعد النفسي مهم في أي صراع: الشعوب التي تفقد الثقة بإمكان التغيير تُهزم قبل أن تبدأ المعركة. أما حين تعيد تعريف القوة على أساس صحيح، فإنها تستعيد زمام المبادرة.

الواقع المعاصر مليء بأمثلة دول تملك ثروات ضخمة وجيوشاً كبيرة، لكنها تعاني من هشاشة داخلية بسبب غياب مشروع جامع أو رعاية لشؤون الناس أو استقلال سياسي. في المقابل، هناك تجارب تثبت أن رابطة العقيدة عندما تتمكن من النفوس توجد التماسك الداخلي والرؤية الواضحة ما يعوّض كثيراً من النقص المادي.

بدر ليست دعوة للمغامرة غير المحسوبة، ولا للاستهانة بالفوارق الواقعية، بل دعوة لإعادة ترتيب الأولويات: بناء عقيدة صلبة تجمع الناس على رابطة مبدئية صحيحة، فتجعل المجتمع متماسكاً، وقيادة واعية تملك قرارها، ثم إعداد مادي جاد. عندها فقط يصبح للعدد والعدة معناهما الحقيقي.

حين نقيس أنفسنا اليوم بميزان الآخرين، سننظر نشعر بالدونية والعجز. لكن حين نعيد تعريف القوة وفق ميزاننا نحن، ميزان الفكرة المبدئية، العقيدة الإسلامية، سنفهم لماذا انتصرت قلة في بدر، ولماذا تُهزم كثرة أحياناً رغم وفرة الإمكانيات. المسألة ليست في حجم ما نملك فقط، بل في حقيقة ما نكون.

هذا تماماً ما عبرت عنه كل حروب المسلمين من بدر إلى اليرموك إلى حطين وملاذ كرد وعين جالوت وغيرها، كلها حروب لا اعتبار فيها لعدد ولا عدة بل الاعتبار الوحيد للعقيدة التي يحملها هؤلاء المجاهدون الذين خرجوا من ديارهم لتكون كلمة الله هي العليا ولينتصر بهم الإسلام ودولته التي نسأل الله أن نراها ونرى انتصاراتها من جديد خلافة راشدة على منهاج النبوة.

المكتب الإعلامي لحزب التحرير

في ولاية مصر